(١٠)

السيدة أم حبيبة - رضى الله عنها

لم يكن أمام المسلمين الأوائل للنجاة من فتنة قريش لهم بمكة، إلا أن يفروا بدينهم عملاً بتوجيهات النبى لهم، فهاجر فريقٌ منهم إلى الحبشة، ثم لحقت بهم طائفة أخرى، فيما عرف بالهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان فيها زوجان فى بدء حياتهما الزوجية، رملة بنت أبى سفيان، وعبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ أسلم عبيد الله، فأسلمت رملة، وخشيت أن يفتنها أبوها أبو سفيان عن دينها فهاجرت هى وزوجها مع من هاجر، وكانت تعانى متاعب الحمل لأول مرة.

وما كادت تستقر بهما الأحوال فى المهجر حتى رأت فى منامها رؤيا تتعلق بزوجها، رؤيا فزعت منها رملة، حيث رأت زوجها فى صورة أسوأ ما تكون، وإذا بزوجها يرتد عن الإسلام ويعتنق النصرانية دين الأحباش، ويحاول أن تقتدي به زوجته فترتد عن الإسلام لكن محاولاته باءت بالفشل.

فما كان منه إلا أن هجرها، وآثرت هى الوحدة والفقر مع الإسلام على الكفر مع الراحة والمال، لأن الإسلام إذا ذاق

حلاوته مؤمن لا تقبل نفسه سواه، وإن أزيلت الرؤوس، وحزت الرقاب، صارت رملة وحيدة فى بلد بعيد غريب، محال أن تعود إلى مكة؛ لأن معنى ذلك أن تقع تحت وطأة أبيها زعيم الكفر فى مكة، وأعدى أعداء الإسلام.

وزاد من وطأة الهموم عليها أن وضعت ابنتها «حبيبة» التى لم تر أباها ولم يرها أبوها.

سمع النبى ﷺ بما حدث لرملة «أم حبيبة» وبما كان من زوجها الذى باع دينه بدنياه، وأدار ظهره لزوجته ولم يرق قلبه من أجل وليدته.

وما كان منه أمام هذه الكوارث الثقال إلا أن يحرر رسالة كريمة ينقذ بها رملة وحبيبة من الوحشة والوحدة والاغتراب، حرر هذه الرسالة إلى «النجاشى» ملك الحبشة، يوكله فيها عن نفسه فى عقد زواجه من أم حبيبة ويقول له: أرسل إلى رملة أم حبيبة أن توكل أحد المهاجرين عن نفسها ليحضر مجلس العقد، فقام النجاشى بالمهمة خير قيام، وسرى خبر زواج النبى من رملة سريان أشعة الشمس فى ربوع البلاد، وعلا البشر وجه رملة ووجوه كل الذين حزنوا من أجلها، وأهداها النجاشى هدايا كريمة، وسارعت فضليات النساء فى الحبشة فى الإهداء إلى رملة، وانهالت عليها عبارات التهنئة بأعظم زواج وأغلى زوج ﷺ.

وشعرت أم حبيبة بالراحة والسعادة تغمر قلبها، وانقشعت

السحابة السوداء التى حجبت عنها الرؤية ردحاً من الزمن ومع بُعْد الزوج عن العروس، وغربة العروس عن الزوج فإن سحر الروابط الدافئة جعلها تشعر كأنها تعيش مع زوجها العظيم فى غرفة واحدة، وكفاها شرفاً أنها صارت واحدة من أمهات المؤمنين، والسعد وعد، وما أعظم المحن التى يتولد عنها هذا الخير المشرق، إن أم حبيبة لم تغنم الأمان فى هذه الدنيا الزائلة فحسب، بل غنمت الأمان فى الدار الآخرة التى لا فناء بعدها.

ومن حكمة الرسول الحكيم أنه أسرع بالتزوج من رملة غيابياً ولم يتأن حتى تعود بعد أن تتبدل الأحوال؛ لأنه كان يقدر أنه لو أرجأ هذا الزواج لهلكت أم حبيبة من أشباح الخوف من المجهول، وفى طبائع البشر ضعف وإن كانوا مؤمنين، وللعزائم فتور وإن كانت قوية، وللشيطان وساوس وإن كانت أوهاماً.

وهكذا تتجلى فطنة نبى الرحمة، فيداوى الجروح الغائرة ويجبر القلوب الكسيرة، وبينه وبينها مئات الفراسخ والأميال.

وفى العام السابع الهجرى، وحين عودة الموكب النبوى المنتصر على يهود خيبر، فاجأ الله رسوله الكريم بوصول من بقى من المهاجرين إلى الحبشة، وفيهم زوجه أم حبيبة فاجأه الله بوصولهم إلى المدينة، فكان نصراً ثانياً تضاعفت الفرحة به بفضل الله، وسُرِّ النبى أيما سرور بعودة المهاجرين فى سبيل الله.

وبنى رسول الله ﷺ بزوجه رملة بنت أبى سفيان، أو «أم

حبيبة» التى عقد عليها غيابياً منذ سنين، وفى واقعة تعد هى «الوحيدة» فى تاريخ الرسل الكرام.

وكافأ الله تلك المهاجرة المؤمنة، كافأها على تحمل المشاق فى سبيل الحفاظ على إيمانها، فجعلها زوجاً لأعظم البشر على الإطلاق، وأما للمؤمنين من ساعة عقد عليها النبى غيابياً إلى أبد الآبدين، لأن الله «لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وهو القائل فى كتابه العزيز: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

هذه هى قصة زواج النبى ﷺ من السيدة رملة «أم حبيبة» ابنة أبى سفيان، سقناها - كغيرها - فى إيجاز؛ لأن غرضنا من هذه القصص الوضيئة أن نستخلص من كل واحدة منها السبب الذى من أجله تزوج رسول الله ﷺ صاحبة القصة.

ومن وقائع قصة أم حبيبة تبرز لنا - بوضوح - عدة أسباب وراء هذا الزواج الميمون، وهى: المكافأة والتكريم والمواساة والرحمة، ثم الحماية وهى - كما ترى - أسباب منشؤها النبل وكرم الأخلاق والإحسان.

وليس كما قال المبشرون والمستشرقون والجهلة، وإن كان

بعضهم ممن ينتمون إلى الإسلام، ليس الأمر كما زعموا من أن تهالك محمد - عليه السلام - على الملذات الجسدية، وإرواء الشهوة الجنسية هو السبب المحرك له فى جميع زيجاته؟!

هذا أقبح افتراء يرددونه حول تعدد زوجات النبى، ولم يصح لهم دليل أو شبه دليل على ما يدعون.

وفى تزوجه عليه السلام بالسيدة أم حبيبة ما يلقمهم حجراً ويرد عليهم كيدهم فى نحورهم.

لأن عقد زواج النبى من أم حبيبة تم - كما تقدم - وهى نائية عنه فى بلاد الحبشة، وهو بعيد عنها بمئات الفراسخ والأميال، هذا من حيث المكان، أما من حيث الزمان فإن الزمان أعجب، فقد كان بين العقد عليها والدخول بها بضع سنين.

فهل يعقل - لو كان الباعث على زواجه منها هو الشبق - أن يصبر عليها هذه المدة؟ أما كان الأجدر به أن يتزوج فتاة حاضرة جاهزة، يُعرس بها ساعة يعقد عليها؟

عجباً - والله - لهؤلاء المبشرين والمستشرقين بأى عقل يفكرون وبأى لسان يتكلمون؟ وإلى مَنْ يكتبون ما يكتبون؟ وأقوالهم هى الباطل فى أجلى صوره.

إنها - والله ذى الجلال والإكرام - لحماقة ما بعدها حماقة، وجهل وجهالة ما بعدهما جهل ولا جهالة.